السحاب والوشاح باحثة عن مساحة الوجود الفلسطيني فلا تعثر إلا على ترجيع الموج والق البحر وجمالية الكون . يبتعد الفلسطيني في لا تناهي الكون ويتزايل في دوائر « الحب ، والشبق ، والغيرة ، والعبث ، والايمان » . وفي دوائر الظلال وعبق الفلسفة تبحث القراءة عن سمات « وديع عساف » وتنظر تائهة إلى جراح « فايز عطا الله » الشهيد . وبعد أن تجوب القراءة أرجاء السفينة برموزها الكونية تتخلى عن بحثها التقليدي وتدرك أنها في حضرة فلسطيني من نموذج خاص .

يخلق جبرا فضاءه الروائي ، وفي عملية الخلق يبني واقعا اجتماعيا وذاتا فلسطينية ، يبني واقعا يتمايز عن الواقع . وبين الواقع وصورته الفنية مسافة يحكمها الخيال وتبنيها الكتابة ويرشح فيها الوهم أيضا . وفي هذا الواقع المرسوم فنيا نحاول البحث عن الفلسطيني العادي . لكن البحث عنه يرتطم بمزاج الخيال وقدسية الكتابة ورؤيا الكاتب وتصوره للعالم ، يرتد البحث حسيرا ويتنازل عن فلسطيني الواقع ويقف أمام فلسطيني الكتابة .

كتابة جبرا رحلة مبرقشة وبحث متناء ، تنطلق من الحبر والورق وخيال الراوي ، تذرع كهوف النفس والماضي ، وتجوب مواطن الجمال وطقوس الحروف ، إلى أن تصل إلى نهايتها أو إلى أن تصل إلى النهاية المكتوبة في بدايتها ، كتابة تبدأ وكتابة تنتهي ، وفي دائرية الكتابة الملونة لا يتحقق الواقع في صورته الفنية بل يتحقق صرح الكتابة الذي يخلق واقعه المغترب عن الواقع المعاش . والكتابة هنا حركة متناغمة لا تعرف إلا تناقضها ، فتنفي أي تناقض آخر وتنساب في علاقاتها الفنية : كتابة يتناءى فيها الواقع أو يتعالى،أي يزول ليحل مكانه واقع الكتابة الوهمي .

تقف « القراءة الواقعية » أمام ملكوت الكتابة متسائلة ، ثم ما تلبث أن تكف عن التساؤل وتضع الواقع بين قوسين في انتظار النهاية . تبحر القراءة مع « السفينة » كي ترى ما هو مقال الرحالة . يقول جبرا في سطور روايته : « وفي النهاية يكتب الرحالة كتابه وينشره ، ونقراه نحن بلغته الأجنبية لنعرف شيئا جديدا عن أنفسنا ، لنعلم أين بعضنا منا : ص : ٨٦ » . سنستعير هذا القول الجميل من جبرا ونعيد صياغته فنقول : إن رواية « السفينة » كتبت بأحرف نعرفها وبلغة لا نعرفها ، لغة أجنبية لا نرى فيها ذاتنا بل نرى ذات الآخر ، وبعد أن ننظر إلى ذاته وذاتنا ندرك مسافة الاختلاف . فنحن نعرف حروف جبرا الفلسطينية لكننا لا نعرف لغته لأنها لغة رحالة ، نعرف الحروف فنشاركه أشواقه والحنين إلى الوطن وبعد الحنين وبسببه نفترق عنه لاختلاف الهموم والرؤيا . فمن أين يبدأ الرحالة ؟

في دائرية الرؤيا تنعدم البداية عند جبرا كما تنعدم النهاية ، فكل نقطة هي بداية ونهاية ، وهل يعرف الجوهر معنى البداية والنهاية ؟ . وفلسطيني جبرا هو جوهر متوحد يدور حول ذاته ويعيش عالمه الذي ينفي عالم الحركة . ذات لها منطق خاص تحن إلى الوطن وهي على ظهر سفينة تمارس اللذة . هذه إحدى لحظات الفلسطيني وديع عساف :

« اقيمت حفلة الرقص . كانت جاكلين بين ذراعي في خفة الريح ، وعندما اشتدت الموسيقى الحاحا ووحشية ، ارتمت على صدري كأنها تبغي أن تندس بين عظامي . ذكرت فايز . ذكرت الصخور . ذكرت الموت والميلاد . وفمي يمسد شعرها القصير ، ويتحسس إذنها